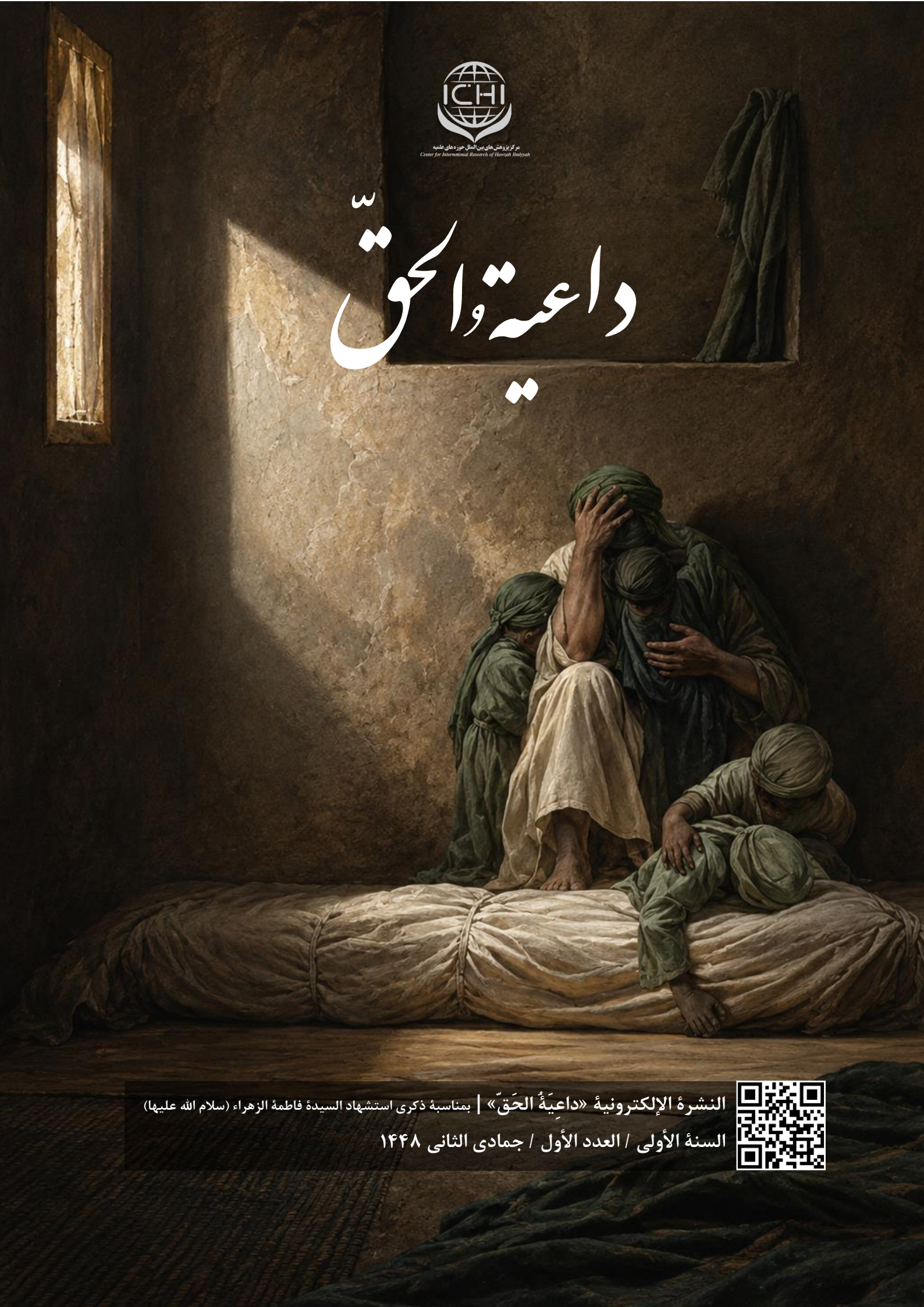


النشرة الإلكترونية «داعِيَةُ الحَقّ» | بمناسبة ذكرى استشهاد السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها)
السنة الأولى / العدد الأول / جمادى الثانى ١٤٤٨

فهرست مطالب

تبيين المقام المنيع للسيّدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) ودليل حُجّيّتها على الأئمّة الأطهار (عليهم السلام)..... ٣
شخصية السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من منظار المستشرقين غير المسلمين ٧
دَوْرُ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) فِي الْوَحْدَةِ وَالِانْسِجَامِ الْإِسْلَامِيِّ..... ١٠
الثبات والمقاومة فى سيرة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) ١٤
الثبات والاستقامة فى سيرة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) ٢٠
دور السيدة الزهراء (عليها السلام) فى الدفاع عن الإسلام والولاية ٢٣



لسماحة المرجع الدينى الكبير آية الله العظمى الشيخ عبد الله جوادى الآملى (دام ظلّه)

تبيين المقام المنيع للسيّدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) ودليل حُجّيّتها على الأئمّة الأطهار (عليهم السلام)

بمناسبة ذكرى شهادة الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء (صلوات الله وسلامه عليها)، يتناول سماحة المرجع الدينى معالم الشخصية الملكوتية للصدّيقة الطاهرة عبر محورين رئيسيين:

ينبغى الحديث عن فاطمة الزهراء (عليها السلام) فى محورين أساسيين:

- **المحور الأول:** يرتبط بالجانب العلمى والمعرفى، وهو ما يعود علينا بالثمرة العلمية واليقين الاعتقادى، ويشكّل سنداً رصيناً لمنظومتنا الأخلاقية والفقهية والحقوقية.
- **المحور الثانى:** يتعلّق بما يجب علينا فى مقام التأسّى والاقتداء بها، وجعلها أسوةً ونبراساً فى الحياة.

المقام المنيع لفاطمة الزهراء (عليها السلام) فى الميزان الاعتقادى والعلمى

إنّ الشقّ المتعلّق بالمسائل الاعتقادية وذخائر المعرفة يقتضى سبر أغوار المقام الشامخ لتلك السيّدة الجليلة (سلام الله عليها)؛ لنُدرك أنّها عِدْلُ القرآن الكريم، وقرينة النبوة، وصنو الرسالة والولاية؛ إذ لا ينقصها شىءٌ عن «ولىّ الله المطلق»، وكلّهم نورٌ واحد. وهذا النمط من الأبحاث يثمر رسوخاً علمياً واعتقادياً، ويغدو دعامةً معرفية تنهض بمسؤولية التأسّى فى المحور الثانى.

أمّا سرّ كون هذه السيّدة حُجّةً على الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، وأنّه لو لم يُخلق على بن أبى طالب (عليه السلام) لما كان لها كفءٌ من الخلق، فمردّه إلى أنّ نشأتها حدوثاً وبقاءً تماثل نشأة القرآن الكريم؛ فالقرآن يتّصف بخصائص ثلاث:

١. أنّه لم ينبع من الأرض، بل تنزّل من سماء الغيب.

٢. استغرق نزوله التدرّجى طيلة ثلاث وعشرين سنة.

٣. أنّه باقٍ على مرّ الأبد، ومصونٌ عن الزوال والاندراس: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤٢).

وحينما نحلل هوية الإنسان الكامل، ولا سيّما فاطمة الزهراء (عليها السلام)، نجدها تختصر فى هذا المثلث الملكوتى بعينه؛ فهى لم تنبثق من تراب الأرض، بل هبطت من عالم الملكوت، وكانت مرافقةً لمسيرة القرآن الكريم.

وبيانه: أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لما شُرّف بمقام النبوة وعُرج به إلى السماوات العُلى، تناول فى المعراج طعاماً سماوياً، ولمّا هبط إلى الأرض اعتزل الناس حتى تحوّل ذلک الغذاء الغيبى وثمر الجنة إلى نطفة مباركة فى صلبه الطاهر، ثم استقرّت فى القرار المكين لخديجة الكبرى (عليها السلام). لقد استغرق الإعداد لنزول تلک النطفة سنوات من ترقّب الوحى وامتحان انقطاعه وعروجه الإعجازى؛ فكان ذلک طليعة تجلّى الزهراء فى عالم الطبيعة.

والضلع الثانى لهذا المثلث: أنّ الزهراء (عليها السلام)، خلال سنوات النزول التدريجى للقرآن (٢٣ عاماً)، ارتبطت بالقرآن من قنوات متعدّدة:

- **طريق مباشر:** عبر تلقّى الآيات من فيض والدها المصطفى (صلّى الله عليه وآله)؛ فكانت تبعث الحسنين (عليهما السلام) كل يوم سفيرين إلى مجلس النبى لتستنطقهما عما نزل من الوحى، وكيف فسّره النبى ووفّق بين دلالاته، ثم تفاوض والدها العظيم إتماماً للتقرير.
- **طريق على بن أبى طالب (عليه السلام):** وهو باب مدينة العلم، الذى كان يوافيها بانتظام بما نزل وما أُوّل وفُسّر.
- **طريق الاتصال الملكوتى المباشر بالله تعالى:** وهو طريق التقوى الذى وعد الله به المؤمنين: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، وقوله: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال: ٢٩)؛ ولمّا كانت الزهراء مَثَلاً أعلى للتقوى، آتاها الله فُرقاناً يميّز بين الحق والباطل، فكانت تلميذةً مباشرة لفيض الذات الإلهية المقدسة.

استمر هذا التلازم طيلة عهد الرسالة، حتى إذا تمّ نزول القرآن فى أواخر عمر المصطفى (صلّى الله عليه وآله)، رحل النبى وتلته ابنته سريعاً خلال ٧٥ أو ٩٥ يوماً؛ فكأنّما كان عمرها مقترناً بتمام الوحى، تتنفس بالقرآن، وتتكامل معه، وتأنس به. ولما جاء القرآن ليبقى، نزلت فاطمة الزهراء أيضاً لتبقى؛ فرغم ارتحال جسدها الشريف، إلا أنّ روحها وسيرتها خالدتان خلود الدهر.

سرّ خلود فاطمة الزهراء (عليها السلام)

إذا قال أمير المؤمنين (عليه السلام) فى وصف علماء الدين: «العُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ»، فإنّ المصداق الأتمّ والأصيل لهؤلاء العلماء هم المعصومون (عليهم السلام).

ويشهد لخلود الزهراء ختامُ سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. فقد ذهب كبار المفسرين من الفريقين إلى أنّ صناديد قريش والمشركين — انطلاقاً من أعراف الجاهلية وعقيدتهم بأنّ «بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا... بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَبَاعِدِ» — زعموا أنّ النبى سيموت ويندثر ذكره ودينه بموت أبنائه للذكور، فأنزل الله رداً عليهم بأنّ دينه وذكره خالدان، ووهبه ذرية تحفظ هذا الدين والقرآن وتفسّره وتعلّمه للناس، وهم أبناء هذه البنت المباركة. فالشانئ المعادى هو الأبتر منقطع الأثر، أمّا ذكر النبى فخالدٌ مخلّدٌ بالزهراء وبنيها الأطهار.

وهكذا، كانت الزهراء صائنةً للقرآن، تماثله هبوطاً من الغيب، وتكاملاً مع مسيرته، وخلوداً أبدياً لا يزول.

برهان حُجّيّة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على الأئمة

إنّ مناط الحجّيّة الإلهية لا ينحصر فى رتبة النبوة أو الرسالة أو الإمامة، بل إنّ محوره الذاتى هو «**العصمة**»؛ فمتى ثبتت عصمة إنسان كان قوله وفعله وتقريره وسكوته وقعوده وقيامه حجّةً لله على خلقه. ولذا نسلّم فى زيارة آل ياسين على شؤون ولى العصر (عجّل الله فرجه) كلّها: «السَّلَامُ عَلَيْکَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْعُدُ، حِينَ تَقْرَأُ وَتُبَيِّنُ، حِينَ تَرْكَعُ وَتَسْجُدُ»، لأنّ حالاته كلها تجليات للعصمة، ومصداق لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١۶٢).

ولمّا كانت الزهراء معصومةً بعصمة الله، كانت حجّةً بالغة. ومن هنا كان استشهاد أمير المؤمنين (عليه السلام) فى نهج البلاغة بكلامها استدلالاً بقول «حجّة الله».

أمّا سرّ كونها حجّة على الأئمة المعصومين أنفسهم، فمع أنّ الأئمة محيطون بعلوم الغيب وما كان وما يكون إلى قيام الساعة، فإنّ من روافد معارفهم الملكوتية: ما سمعوه من رسول الله، وبواطن القرآن، و**«مصحف فاطمة»**.

وحين يُسأل الإمام المعصوم عن مأخذ بعض المغيّبات يجيب: «وجدناه فى مصحف أمّنا».

ومصحف فاطمة هو تلك المعارف الجليلة التى كان ينزل بها جبرائيل (عليه السلام) مسلّياً لفاطمة ومحدّثاً لها بما سيكون، فكانت تتلقّى ذلک وتمليه على أمير المؤمنين (عليه السلام) ليكتبه بيده الشريفة.

إنّ ما انقطع بوفاة النبى هو الوحى التشريعى، كما أشار أمير المؤمنين فى نهج البلاغة: «لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِکَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنْ نُبُوَّةٍ وَإِنْبَاءٍ وَأَخْبَارِ سَمَاءٍ». أمّا الوحى التسديدى والإلهام والأنباء الغيبية التى تنزل فى ليالى القدر والجمع على قلوب المعصومين وصولاً إلى ولى العصر (أرواحنا فداه)، فهى مستمرة لم تنقطع قط. فكان مصحف فاطمة حجةً لله على سائر الأئمة فى تلقّى تلک الإخبارات الغيبية.

مسؤوليتنا فى التأسّى بالزهراء (عليها السلام)

إنّنا مكلّفون ومأمورون بالاقتداء بسيرة الزهراء (عليها السلام)؛ وهو أمرٌ ميسورٌ فى مقدور البشر؛ فقد قدّمت لنا فى الاعتقاد والأخلاق والفقه والحقوق أروع التعاليم العملية.

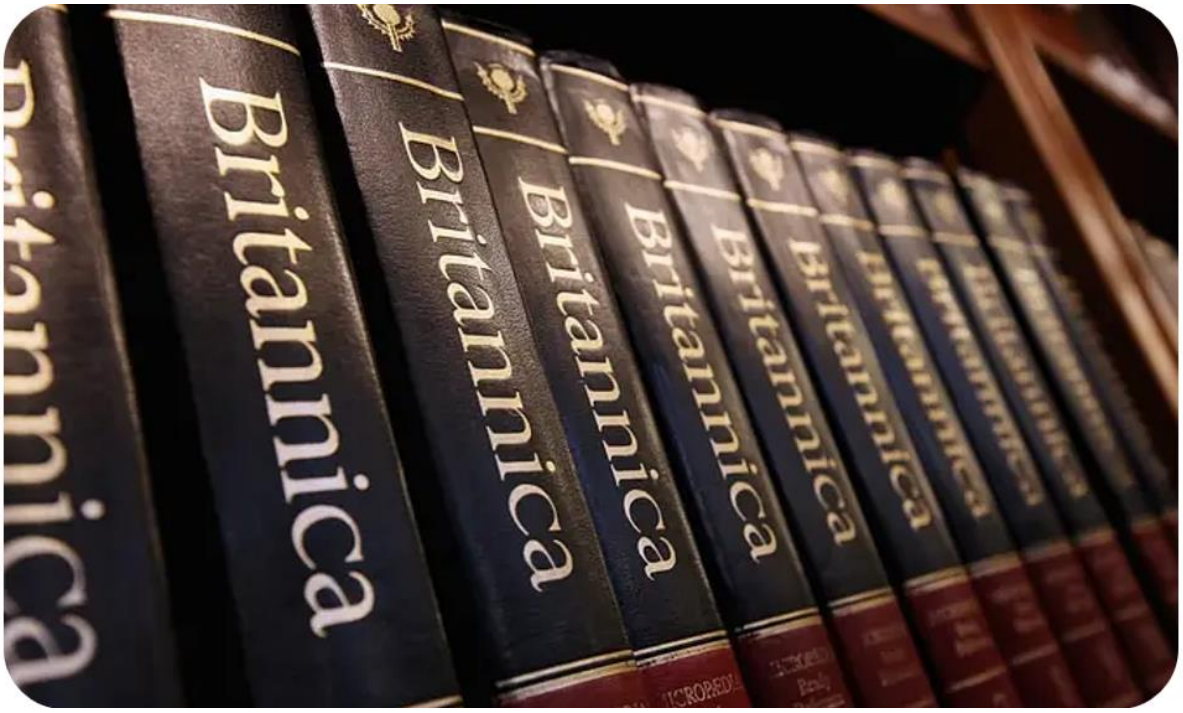
إنّها شمسٌ وهاجة تضىء أرجاء الوجود، وواجبنا أن نقتبس من نورها شعلةً تضىء عوالمنا وسلوكنا الخاص.

ولقد تجلّت مظلوميتها فى بكاء أمير المؤمنين (عليه السلام) إبّان مواراتها الثرى حين خاطب النبىَّ متأوهاً: «قَلَّ يَا رَسُولَ اللهِ عَنْ صَفِيَّتِکَ صَبْرِي... وَسَتُنْبِئُکَ ابْنَتُکَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِکَ عَلَى هَضْمِهَا...». فلم يكن هضم حقها مقتصراً على الهيئة الحاكمة، بل ألبوا العامة ضدها حتى قال قائلهم: «ائتونى بالحطب وأشعلوا الدار!»، وآخر: «اضربوا بغلاف السيف!»، وآخر: «اغتصبوا فدكاً!»، متناسين قول النبى المتواتر: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّى، فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِى، وَرِضَا فَاطِمَةَ مِنْ رِضَا اللهِ».

ويروى الشيخ المفيد (رحمه الله) أنّ الزهراء لما رأت علياً يُقاد ملبباً بحمائل سيفه نادت: «خلّوا عن ابن عمى، فوَاللهِ لأكشفنّ رأسى ولأضعنّ قميص رسول الله على رأسى ولأدعونّ عليكم!»، فقال أمير المؤمنين لسلمان: «يا سلمان، أدرک فاطمة... فإنى أرى جانبى المدينة يتكففان واللهِ إنْ هى كشفت لتُخسفنّ الأرض».

هذه هى عظمة فاطمة؛ وحين نقرأ خطبة زينب الكبرى (عليها السلام) فى الكوفة نجد روح كلماتها مستلهمة من بلاغة أمّها. بل صدق صدر المتألهين الشيرازى (رضوان الله عليه) حين قال فى إحدى رسائله الشريفة: «إنّ الحسين بن على قُتل فى سقيفة بنى ساعدة؛ فلولا إضرام النار فى باب فاطمة، لما تجرّأ القوم على إحراق خيام عيال الحسين فى كربلاء».

نسأل الله وندعوه باسمه العظيم الأعظم، ونتوسل بالزهراء وأبيها وبعلها وبنيها والسرّ المستودع فيها، أن يثبّتنا على صراطهم المستقيم.



شخصية السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من منظار المستشرقين غير المسلمين

تزخر أبحاث المستشرقين ومؤلفاتهم بدراسات متعددة تناولت شخصية السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها). ورغم أنّ هذه الأعمال لا تخلو — بحكم طبيعتها الاستشراقية — من هنات تاريخية وملاحظات تستوجب النقد والتصويب، إلا أنّها تعكس بوضوح الخصائص الفريدة لتلك السيّدة العظيمة، ومكانتها السامية فى الإسلام ومذهب التشيّع، ودورها المحورى فى صياغة موقع المرأة فى التاريخ الإسلامى.

وقد قدّم فريقٌ من المستشرقين — ولا سيّما أولئك الذين أتيح لهم الاطلاع على المصادر الإسلامية والشيعية الأصيلة — السيدة الزهراء بوصفها شخصية بطولية، وأسوة للبشرية قاطبة، ونموذجاً يُحتذى به للأمومة والزوجية الصالحة.

لقد تجاوز حضور السيدة الزهراء (سلام الله عليها) حدود الأطر المذهبية وأقوال علماء المسلمين، ليلفت اهتمام الباحثين والمستشرقين الأوروبيين؛ حيث تنقسم قراءاتهم لشخصيتها عموماً إلى اتجاهين:

١. **الاتجاه الأول:** اعتمد على مراجع غربية ومصادر ثانوية غير إسلامية؛ فجاءت أحكامه مجتزأة وقاصرة، ومالت إلى نقد شخصيتها أو التقليل من دورها التاريخى.

٢. **الاتجاه الثانى:** ضمّ نخبة من الباحثين المنصفين الذين عكفوا على دراسة النصوص الإسلامية والشيعية المعتبرة؛ فرأوا فى الزهراء رمزاً للتضحية والبطولة، وأسوة عالمية لكل امرأة حرة. وتكشف المتابعة التاريخية أنّ المستشرقين أفردوا لها

كتباً ومقالات مستقلة تارة، أو تناولوا مناقبها ضمناً عند دراسة رجالات الإسلام العظام، كالإمام على بن أبى طالب (عليه السلام) تارة أخرى.

ورغم الحاجة النقدية الدائمة لتمحيص هذه الآثار، فإنّ استعراضها يسهم فى استجلاء الكيفية التى تلقّى بها الفكر الغربى هذه الشخصية الإلهية الفذة.

السيدة فاطمة (عليها السلام) فى دائرة معارف ليدن

فى «دائرة معارف القرآن» (Encyclopaedia of the Qur'an) الصادرة فى خمسة مجلدات عن دار بريل (Brill) العريقة فى مدينة ليدن الهولندية، كتبت رئيسة تحرير الموسوعة الدكتورة **جين دَمَن ماك أوليف** (Jane Dammen McAuliffe) المقال المخصّص للسيدة فاطمة الزهراء.

وماك أوليف أستاذة بارزة فى الدراسات الإسلامية بجامعة جورجتاون الأمريكية، ونالت درجتى الماجستير والدكتوراه من جامعة تورنتو الكندية، وقامت بالتدريس فى جامعات مرموقة كجامعة إيموری وتورنتو.

وقد نالت شخصية الزهراء فى دراستها تقديراً وإشادة بالغة؛ حيث أشارت فى جزء من مقالها إلى أنّ:

«أبرز الآيات القرآنية التى ربطها المفسرون بفاطمة هى آية التطهير (الأحزاب: ٣٣) وآية المباهلة (آل عمران: ٦١). ففى الآية الأولى يُشار إلى "أهل البيت"، وقد فسّرت النصوص المعتبرة أهل البيت بمحمد وفاطمة وزوجها على بن أبى طالب وابنيهما الحسن والحسين، وهذا التفسير هو الأدق والأثبت بين سائر التأويلات».

ومن النقاط اللافتة فى المقال، المقارنة العميقة بين السيدة مريم العذراء والسيدة فاطمة الزهراء (عليهما السلام)؛ حيث جاء فيه:

«تستفيض النصوص الشيعية فى شرح الصلة الوثيقة بين مريم وفاطمة، وتعتبرهما رمزين للنساء اللواتى كابدن المحن والآلام؛ فقد فُجعت فاطمة برحيل أبيها، وشهدت كلتا الوالدتين [مريم وفاطمة]، عياناً أو بالبصيرة، مظلومية ابنيهما وقسوة ما لحق بهما. ولقد تداخلت سيرتاهما فى الوجدان الإسلامى حتى لُقّبت فاطمة بـ "مريم الكبرى". وقد قدّم المستشرق الفرنسى المعاصر لويس ماسينيون تأويلاً عرفانياً روحياً عميقاً لهذه الرابطة القدسية بين فاطمة ومريم».

السيدة فاطمة (عليها السلام) فى الموسوعة البريطانية (بريتانيكا)

تُعدّ الموسوعة البريطانية (Encyclopaedia Britannica) من أقدم وأضخم الموسوعات العامة باللغة الإنجليزية؛ إذ يعود تأسيسها إلى عام ١٧٦٨م، وهى لا تزال تُعدّ المرجع الموسوعى الأقدم استمراراً فى العالم.

وفى مدخل «فاطمة» (Fatima)، حظيت السيدة الزهراء بإشادة واضحة، وجاء فى نصه:

«ينظر المسلمون حول العالم إلى فاطمة باعتبارها ابنة بارّة، وأمّاً وزوجةً محبّة ومضحّية، ومسلمةً صادقة وأنموذجاً سامياً للمرأة المسلمة. وهناك إجماع على شدة قربها من أبيها النبى محمد؛ وتدل أحاديث نبوية متواترة على تميزها الاستثنائى عن سائر النساء، ومنها: "فاطمة بضعة منى، فمن آذاها فقد آذانى". وتحظى فاطمة بمكانة محورية خاصة لدى الشيعة لزواجها

من على، الذى يرون فيه الخليفة الشرعى للنبى وإمامهم الأول، فضلاً عن كونها أمّ الحسن والحسين، اللذين يعتبرهما الشيعة الأئمة الشرعيين وامتداداً لسنة النبى وسيرته».

وجدير بالذكر أنّ المدخل المذكور يتضمن فى شأن مسألة «فدک» وشهادة السيدة الزهراء معالجة تختلف جوهرياً عن المنظور الشيعى؛ وهو تباين يعود أساساً إلى اعتماد محررى الموسوعة على المصادر التاريخية السنية المبكرة.

ماسينيون وتلميذه هانرى كوربن: قراءة عرفانية لمقام الزهراء

من بين كبار المستشرقين الذين انشغلوا بدراسة السيدة الزهراء (عليها السلام)، الفيلسوف والمستشرق الفرنسى الشهير **هانرى كوربن** (Henry Corbin).

ويذكر الباحث فى الدراسات العرفانية السيّد رضا فيض أنّ المستشرق الفرنسى المعروف **لويس ماسينيون** (Louis Massignon) وجّه فى أواخر حياته رسالة إلى تلميذه ورفيق دربه هانرى كوربن، يوصيه فيها — لكونه الأقرب إلى منهجه — بإيلاء «الإسلام العرفانى» عناية خاصة، وأن يضع مؤلّفاً مستقلاً عن السيدة فاطمة الزهراء؛ لإيمانه بأنّها السيّدة التى تمثّل مشكاة النور الإلهى ومستقر المعرفة الربانية.

وقد استجاب كوربن لهذه الوصية؛ فتحدث عن مقامات الزهراء الملكوتية فى مؤلفاته، ولا سيّما فى كتابه الشهير: «أرض الملكوت وجسد الإنسان فى يوم البعث» (Terre céleste et corps de résurrection)، وكتابه «تاريخ الفلسفة الإسلامية».

ويؤكد كوربن فى أطروحاته أنّ الرابطة الروحية بين الله والإنسان تجرى فى كل عصر عبر الأئمة المعصومين، وأنّ هذه الرابطة قائمة اليوم من خلال «إمام الزمان» عند الشيعة، مؤكداً أنّ **السيدة فاطمة الزهراء هى حلقة الوصل المحورية** فى هذا التدفق الروحى.

ويرى كوربن أنّ وجود فاطمة (عليها السلام) هو منتهى المعرفة والشهود الإلهى، وأنّها تمثّل «التجلى الإلهى» الأتمّ؛ حيث أورد فى كتابه سالف الذكر:

«حينما نتأمل الفضائل الوجودية للسيدة فاطمة، يسعنا القول إنّ ذلک الوجود المبارک... هو بعينه تجلٍّ للذات الإلهية».

خاتمة

يتبين من خلال مراجعة الدراسات الاستشراقية المعاصرة أنّ السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) شغلت مكانة فريدة جذبت عقول كبار الباحثين الغربيين المنصفين؛ فرأوا فيها رمزاً يجمع بين الطهر، وعمق المعرفة، والصمود الرسالى، والريادة فى صياغة الهوية الإنسانية للمرأة المؤمنة عبر العصور.



دَوْرُ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) فِي الْوَحْدَةِ وَالِانْسِجَامِ الْإِسْلَامِيِّ

تَسْرِي تَعَالِيمُ الْوَحْدَةِ فِي مُخْتَلِفِ أَبْعَادِ حَيَاةِ بَضْعَةِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ (عَلَيْهَا السَّلَامُ)؛ فَهِيَ ابْنَةُ مَنْ يُعَدُّ مِحْوَرَ وَحْدَةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ ذَلِكَ الرَّسُولِ الَّذِي يَعْشَقُهُ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعاً وَيُجِلُّونَ مَقَامَهُ السَّامِيَ وَالْمَلَكُوتِيَّ. وَلَمَّا كَانَتْ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) قَدِ اتَّخَذَتْ مِنْ سِيرَةِ أَبِيهَا الْقُدْوَةَ وَالْمَثَلَ، وَكَانَتْ مَحَطَّ تَكْرِيمِ ذَلِكَ الْأَبِ الرَّحِيمِ عَلَى الدَّوَامِ، فَلَا غَرْوَ أَنْ يَكُونَ نَهْجُهَا عَيْنَ الْإِصْلَاحِ، وَمَسْلَكُهَا سَبِيلَ التَّرْبِيَةِ وَالْبِدَايَةِ (الْبِدَايَةِ فِي التَّبْشِيرِ وَالْيَقَظَةِ)؛ وَمِنْ هُنَا، لَيْسَ مَرْمَانَا فِي هَذَا الْمَقَالِ اسْتِقْصَاءَ جَمِيعِ سِيرَةِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ أَوْ إِحْصَاءَ كَافَّةِ كَلِمَاتِهَا؛ إِذْ إِنَّ هَذَا الْبَحْثَ طَوِيلٌ وَذُو شُجُونٍ لَا تَسَعُهُ هَذِهِ الصَّفَحَاتُ، بَلْ نُرِيدُ فَقَطْ أَنْ نَدْرُسَ طَائِفَةً مِنْ كَلِمَاتِهَا الَّتِي تُسَاعِدُ أَكْثَرَ عَلَى إِثْبَاتِ فَرْضِيَّتِنَا. وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَدُلُّ عَلَى مُدَّعَانَا تَارَةً بِلَا وَاسِطَةٍ، وَأُخْرَى بِوَاسِطَةٍ. وَتُعَدِّدُ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) لِلْوَحْدَةِ عَوَامِلَ؛ بِمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الْعَوَامِلَ تُوجِدُ رُوحَ الْأُخُوَّةِ الدِّينِيَّةِ أَوْ تُعَزِّزُهَا، وَتُنْقِذُ الْمُجْتَمَعَ مِنَ التَّشَتُّتِ وَالِافْتِرَاقِ. وَبَعْضُ هَذِهِ الْعَوَامِلِ كَمَا يَأْتِي:

١. عِبَادَةُ اللَّهِ وَالدُّعَاءُ

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ هِيَ دَعْوَةٌ إِلَى الْوَحْدَةِ؛ إِذْ يَشْتَرِكُ الْمُسْلِمُونَ فِي أَصْلِ الْعِبَادَةِ وَحُبِّ اللَّهِ، فَجَمِيعُهُمْ يُؤْمِنُونَ بِإِلَهٍ وَاحِدٍ وَيَجْتَنِبُونَ الشِّرْكَ، وَيُصَلُّونَ إِلَى قِبْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَعْتَبِرُونَ نَبِيّاً وَاحِداً آخِرَ رُسُلِ اللَّهِ؛ وَمَعَ كُلِّ هَذَا، فَهُمْ يَنْسَوْنَ هَذِهِ الْحَقَائِقَ

الْعَظِيمَةَ أَحْيَاناً، فَيَرْكَنُونَ إِلَى الْأَجْنَبِيِّ وَيَسُلُّونَ السُّيُوفَ فِي وُجُوهِ إِخْوَانِهِمْ. وَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَحْضِرُوا هَذِهِ الْحَقَائِقَ الْكُبْرَى فِي غَمْرَةِ الصِّرَاعَاتِ الْقَبَلِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ وَالْحِزْبِيَّةِ، فَلَا يُلَطِّخُوا أَيْدِيَهُمْ بِدِمَاءِ إِخْوَتِهِمْ.

وَلِلْأَمْرُ لِلْآخَرُ أَنَّ لِلدَّعْوَةَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ هِيَ دَعْوَةٌ لِإِدْرَاكِ حَقَائِقِ الْكَوْنِ الْجَمِيلَةِ، وَدَعْوَةٌ لِلتَّأَمُّلِ فِي الظَّوَاهِرِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ؛ ذَلِكَ التَّأَمُّلُ لِلَّذِي يُسَبِّبُ النُّمُوَّ وَالتَّكَامُلَ الْمَعْنَوِيَّ وَالتَّقَدُّمَ الْعِلْمِيَّ وَالْعَمَلِيَّ. وَلِلدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ هِيَ دَعْوَةٌ إِلَى السَّلَامِ وَالسَّكِينَةِ؛ إِذْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ مُطْمَئِنٌّ لِلْقُلُوبِ وَمُنْقِذٌ لَهَا مِنَ الاضْطِرَابِ وَالْقَلَقِ.

وَبِاعْتِقَادِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ، كَانَتْ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) تَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحُبِّهِ؛ ذَلِكَ النَّبْعُ الَّذِي اسْتَقَتْ مِنْهُ كَثِيراً. وَكَانَتْ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى حَقِيقَةٍ هِيَ نَفْسُهَا فَانِيَةٌ فِيهَا، وَلِذَلِكَ كَانَتْ نَفْسُهَا أُسْوَةً عَظِيمَةً لِلْعَابِدِينَ وَالزَّاهِدِينَ؛ حَتَّى نُقِلَ أَنَّ: **«أَنْفَاسَ فَاطِمَةَ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) كَانَتْ تَتَرَدَّدُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ»**، وَوَرَدَ أَيْضاً: **«مَا كَانَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَعْبَدُ مِنْ فَاطِمَةَ؛ كَانَتْ تَقُومُ [فِي الْعِبَادَةِ] حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهَا»**.

وَالرِّوَايَاتُ الْوَارِدَةُ فِي عِبَادَةِ فَاطِمَةَ (عَلَيْهَا السَّلَامُ)، وَتَسْبِيحِهَا، وَالصَّلَوَاتِ الْمَنْقُولَةِ عَنْهَا، وَأَدْعِيَتِهَا، كَثِيرَةٌ جِداً وَهِيَ شَاهِدُ صِدْقٍ عَلَى عُمْقِ عِبَادَتِهَا وَزُهْدِهَا.

وَفِي فِكْرِ ابْنَةِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، فَإِنَّ الْمُجْتَمَعَ الَّذِي تَدْخُلُ رُوحُ الْعِبَادَةِ وَالدُّعَاءِ فِي كَالْبُودِهِ، يَقِلُّ تَعَرُّضُهُ لِلتَّشَتُّتِ وَالتَّفَرُّقِ. وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى الدُّعَاءِ، وَتُعَلِّمُهُمْ مِنْ خِلَالِهِ الدُّعَاءَ لِلْإِخْوَانِ وَالْأَخَوَاتِ الدِّينِيَّةِ وَلِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَمْعَاءَ، كَمَا نَقْرَأُ فِي أَحَدِ أَدْعِيَتِهَا:

«بِسْمِ اللَّهِ عَلَى أُحِبَّتِي وَوَلَدِي وَقَرَابَاتِي، بِسْمِ اللَّهِ عَلَى جِيرَانِيَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِخْوَانِي وَمَنْ قَلَّدَنِي دُعَاءً أَوْ اتَّخَذَ عِنْدِي يَداً أَوْ ابْتَدَأَ إِلَيَّ بِبِرٍّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، بِسْمِ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَنِي رَبِّي وَيَرْزُقُنِي».

وَقَدْ بَقِيَ شَوْقُ الدُّعَاءِ لِلْإِخْوَانِ وَالْأَخَوَاتِ الدِّينِيَّةِ وَمَدْرَسَةُ تَعْلِيمِ الدُّعَاءِ لِتِلْكَ السَّيِّدَةِ مُسْتَمِرَّةً حَتَّى اللَّحَظَاتِ الْأَخِيرَةِ مِنْ عُمْرِهَا الْمُبَارَكِ؛ حَيْثُ رَفَعَتْ يَدَيْهَا إِلَى السَّمَاءِ فِي لَحَظَاتِ حَيَاتِهَا الْأَخِيرَةِ حَسَبَ قَوْلِ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ، وَقَالَتْ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَشَوْقِهِ إِلَيَّ، وَبِبَعْلِي عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى وَحُزْنِهِ عَلَيَّ، وَبِالْحَسَنِ الْمُجْتَبَى وَبُكَائِهِ عَلَيَّ، وَبِالْحُسَيْنِ الشَّهِيدِ وَكَآبَتِهِ عَلَيَّ، وَبَنَاتِي الْفَاطِمِيَّاتِ تَحَسُّرِهِنَّ عَلَيَّ، أَنْ تَرْحَمَ وَتَغْفِرَ لِلْعُصَاةِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ وَتُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ، إِنَّكَ أَكْرَمُ الْمَسْئُولِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

وَتَرَى السَّيِّدَةُ أَنَّ رِيشَةَ (أَصْلَ) اخْتِلَافِ الْأُمَّةِ هُوَ نِسْيَانُ ذِكْرِ اللَّهِ، وَشُكْرِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ التَّمَرُّدُ عَلَى أَوَامِرِهِ. وَلِذَا، فِي أَعْظَمِ كَلَامِهَا - الْخُطْبَةِ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، وَالَّتِي اشْتُهِرَتْ بِالْخُطْبَةِ الْفَدَكِيَّةِ -، تَبْدَأُ أَوَّلاً بِحَمْدِ الرَّبِّ وَذِكْرِ نِعَمِهِ وَفَوَائِدِ التَّوْحِيدِ. وَتَقُولُ السَّيِّدَةُ فِي جُزْءٍ مِنْ تِلْكَ الْخُطْبَةِ:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الْإِخْلَاصَ تَأْوِيلَهَا، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَهَا، وَأَنَارَ فِي الْفِكْرِ مَعْقُولَهَا، الْمُمْتَنِعُ عَنِ الْأَبْصَارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الْأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الْأَوْهَامِ كَيْفِيَّتُهُ. ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءَ لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنْشَأَهَا بِلَا احْتِذَاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَهَا، كَوَّنَهَا بِقُدْرَتِهِ وَذَرَأَهَا (أَوْ خَدَأَهَا) بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى تَكْوِينِهَا، وَلَا

فَائِدَةٍ لَهُ فِي تَصْوِيرِهَا، إِلَّا تَثْبِيتاً لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبِيهاً عَلَى طَاعَتِهِ، وَإِظْهَاراً لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّداً لِبَرِيَّتِهِ، وَإِعْزَازاً... ثُمَّ جَعَلَ الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ وَوَضَعَ الْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، زِيَادَةً عَنْ نِقْمَتِهِ وَحِيَاشَةً لَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ».

وَقَدْ بَيَّنَتِ السَّيِّدَةُ فِي بَيَانِ وَظَائِفِ النَّاسِ تِجَاهَ رَبِّهِمْ قَولَهَا: **«أَنْتُمْ عِبَادَ اللَّهِ نَصْبُ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَحَمَلَةُ دِينِهِ وَوَحْيِهِ، وَأُمَنَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَبُلُغَاؤُهُ إِلَى الْأُمَمِ، وَزَعِيمُ حَقٍّ لَهُ فِيكُمْ وَعَهْدٍ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ».**

وَتَعْتَبِرُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) سَبَبَ إِعْرَاضِ النَّاسِ عَنِ اللَّهِ وَالتَّلَاحُقِ بِالتَّفَرُّقِ نَاتِجاً عَنْ ظُهُورِ تَيَّارِ النِّفَاقِ بَيْنَهُمْ:

«وَظَهَرَتْ فِيكُمْ حَسَكَةُ النِّفَاقِ، وَسَمُلَ جِلْبَابُ الدِّينِ»، وَقَالَتْ أَيْضاً: **«وَأَطْلَعَ الشَّيْطَانُ رَأْسَهُ مِنْ مَغْرِزِهِ هَاتِفاً بِكُمْ».**

فَنَعَمْ، كَانَتْ فَاطِمَةُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) تَسْعَى لِتُوحِدَ النَّاسَ حَوْلَ كَلِمَةِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» مِنْ خِلَالِ تَذْكِيرِهِمْ بِخَطَرِ الِارْتِجَاعِ، وَلِتَقْتُلَعَ رِيشَةَ (جِذْرَ) الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ وَالتَّفَرُّقِ.

٢. النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ

يَمْتَلِكُ الْمُسْلِمُونَ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ مَحَاوِرَ أَسَاسِيَّةً لِلْوَحْدَةِ وَالْأُخُوَّةِ؛ مِنْهَا: الْإِلَهُ الْوَاحِدُ، وَالْقِبْلَةُ الْوَاحِدَةُ، وَالْكِتَابُ الْوَاحِدُ، وَالنَّبِيُّ الْوَاحِدُ. نَعَمْ؛ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) خَيْرُ مِحْوَرٍ لِلِاتِّحَادِ، وَعَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، هُوَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ عَلَى الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ثَنَاءً عَظِيماً، وَفَضَّلَهُ عَلَى جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ، وَدَعَا الْمُؤْمِنِينَ إِلَى طَاعَتِهِ، كَمَا جَعَلَ سُبْحَانَهُ طَاعَةَ الرَّسُولِ فِي امْتِدَادِ طَاعَتِهِ تَعَالَى، وَاعْتَبَرَ حَضْرَتَهُ أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ.

وَإِنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) - الَّتِي كَانَتْ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، وَقَدِ امْتَزَجَتْ رُوحُهَا وَنَفْسُهَا بِآيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ - كَانَتْ تَدْعُو النَّاسَ دَائِماً إِلَى الِاتِّعَاظِ بِالرَّسُولِ الْأَكْرَمِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَالتَّأَسِّي بِسِيرَتِهِ. وَالشَّاهِدُ الْجَلِيُّ عَلَى مَا نَقُولُ، هُوَ قَوْلُهَا النُّورَانِيُّ (عَلَيْهَا السَّلَامُ):

«أَبَوَا هَذِهِ لِلْأُمَّةِ مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ، يُقِيمَانِ أَوَدَهُمْ، وَيُنْقِذَانِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ لِلدَّائِمِ إِنْ أَطَاعُوهُمَا، وَيُبِيحَانِهِمُ النَّعِيمَ لِلدَّائِمِ إِنْ وَافَقُوهُمَا» [٩].

وَكَانَتْ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) فِي كَلَامِهَا تُخَاطِبُ بَعْضَ النِّسَاءِ دَاعِيَةً إِيَّاهُنَّ إِلَى إِرْضَاءِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَعَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) اللَّذَيْنِ هُمَا الْأَبَوَانِ الدِّينِيَّانِ، وَلَوْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى سُخْطِ الْآبَاءِ النَّسَبِيِّينَ:

«أَرْضِي أَبَوَيْ دِينِكِ مُحَمَّداً وَعَلِيّاً بِسُخْطِ أَبَوَيْ نَسَبِكِ، وَلَا تُرْضِي أَبَوَيْ نَسَبِكِ بِسُخْطِ أَبَوَيْ دِينِكِ؛ فَإِنَّ أَبَوَيْ نَسَبِكِ إِنْ سَخِطَا أَرْضَاهُمَا مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) بِثَوَابِ جُزْءٍ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ جُزْءٍ مِنْ سَاعَةٍ مِنْ طَاعَتِهِمَا، وَإِنَّ أَبَوَيْ دِينِكِ إِنْ سَخِطَا لَمْ يَقْدِرْ أَبَوَا نَسَبِكِ أَنْ يُرْضِيَاهُمَا؛ لِأَنَّ ثَوَابَ طَاعَاتِ أَهْلِ الدُّنْيَا كُلِّهِمْ لَا يَفِي بِسُخْطِهِمَا» [١٠].

أَجَلْ؛ إِنَّ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ تَحُثُّ النَّاسَ عَلَى التَّآلُفِ وَلِلِارْتِبَاطِ حَوْلَ مِحْوَرِ الْوُجُودِ الْمُقَدَّسِ لِلنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، وَتَزِيدُ مِنْ شَوْقِ الْجَمِيعِ وَعَاطِفَتِهِمْ نَحْوَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ عَبْرَ عِبَارَةِ «الْأَبِ الدِّينِيِّ». وَقَدْ

عَدَّتْ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أَحَدَ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ تُحِبُّهَا فِي الدُّنْيَا، وَبِهَذَا الْبَيَانِ الْمُدْهِشِ تَحُثُّ الْجَمِيعَ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى الْعِشْقِ وَالْمَوَدَّةِ لِلنَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ):

«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: تِلَاوَةُ كِتَابِ اللَّهِ، وَالنَّظَرُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ، وَالْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [١١].

وَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهَا (عَلَيْهَا السَّلَامُ) إِلَى الْوَحْدَةِ عَلَى مِحْوَرِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) مُقْتَصِرَةً عَلَى الْقَوْلِ فَحَسْبُ؛ بَلْ كَانَتْ مُلْتَزِمَةً بِهَذِهِ السِّيرَةِ عَمَلِيّاً، وَأَظْهَرَتْ هَذَا الِالْتِزَامَ مِرَاراً. وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُشَارُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَمْ يَكُونُوا يُوَقِّرُونَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) كَمَا يَنْبَغِي لِمَقَامِهِ، وَلَا يُرَاعُونَ حُرْمَتَهُ عِنْدَ خِطَابِهِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ:

{لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً} [١٢].

يَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): قَالَتْ فَاطِمَةُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ): لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ، هِبْتُ أَنْ أَقُولَ لِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): «يَا أَبَهْ»، فَكُنْتُ أَقُولُ لَهُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ». فَأَعْرَضَ عَنِّي مَرَّةً وَاثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ، إِنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ فِيكِ وَلَا فِي أَهْلِكِ وَلَا فِي نَسْلِكِ، أَنْتِ مِنِّي وَأَنَا مِنْكِ، إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْجَفَاءِ وَالْغِلْظَةِ مِنْ قُرَيْشٍ أَهْلِ الْبَذَخِ وَالْكِبْرِ؛ قُولِي: يَا أَبَهْ، فَإِنَّهَا أَحْيَا لِلْقَلْبِ وَأَرْضَى لِلرَّبِّ» [١٣].

نَعَمْ؛ أَرَادَتْ فَاطِمَةُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ أَنْ تُبَيِّنَ الْتِزَامَهَا الْعَمَلِيَّ بِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَأَلَّا تَعُدَّ نَفْسَهَا نَسِيجاً وَحْدَهَا بِمَعْزِلٍ عَنِ الْأُمَّةِ، بَلْ تُنَادِي نَبِيَّ الْإِسْلَامِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) كَمَا يُنَادِيهِ سَائِرُ النَّاسِ لِتُعَزِّزَ الْوَحْدَةَ وَالتَّجَانُسَ حَوْلَ مِحْوَرِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، وَأَنْ تَسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ مَا لَمْ يَصْدُرْ أَمْرٌ خَاصٌّ مِنْهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)؛ لَكِنَّهَا حِينَ سَمِعَتْ كَلَامَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) عَمِلَتْ بِأَمْرِهِ، وَعَزَّزَتِ الْوَحْدَةَ بِنَحْوٍ آخَرَ، وَكَانَ ذَلِكَ النَّحْوُ الْآخَرُ هُوَ الِاتِّحَادَ فِي طَاعَةِ أَوَامِرِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)!

كَمَا تُذَكِّرُ السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) بِحَالِ أَهْلِ الْحِجَازِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَتَمَزُّقِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ شِيَعاً وَأَحْزَاباً، وَتُحَذِّرُ النَّاسَ عَبْرَ التَّذْكِيرِ بِخَدَمَاتِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) مِنَ الِارْتِجَاعِ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ، دَاعِيَةً إِيَّاهُمْ أَلَّا يُبَدِّلُوا وَحْدَتَهُمْ إِلَى تَفَرُّقٍ:

«ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِتْمَاماً لِأَمْرِهِ، وَعَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ، وَإِنْفَاذاً لِمَقَادِيرِ حَتْمِهِ؛ فَرَأَى الْأُمَمَ فِرَقاً فِي أَدْيَانِهَا، عُكَّفاً عَلَى نِيرَانِهَا، عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا، مُنْكِرَةً لِلَّهِ مَعَ عِرْفَانِهَا؛ فَأَنَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَبِي مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ظُلَمَهَا، وَكَشَفَ عَنِ الْقُلُوبِ بُهَمَهَا، وَجَلَّى عَنِ الْأَبْصَارِ غُمَمَهَا، وَقَامَ فِي النَّاسِ بِالْهِدَايَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ» [٥].

حَتَّى إِنَّ شَكْوَى فَاطِمَةَ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) وَنَوْحَهَا فِي فِرَاقِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) يُمْكِنُ اعْتِبَارُهُمَا دَعْوَةً إِلَى الْوَحْدَةِ حَوْلَ مِحْوَرِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)؛ إِذْ كَانَتْ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) بِمَنَاحَاتِهَا وَأَشْعَارِهَا الْكَثِيرَةِ فِي رَزِيَّةِ رَحِيلِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) الْمُفْجِعِ، وَبِالتَّذْكِيرِ بِنِعْمَةِ حُضُورِ ذَلِكَ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ، تَدْعُو النَّاسَ إِلَى إِحْيَاءِ ذِكْرِهِ وَسِيرَتِهِ، وَتُنَبِّهُهُمْ بِشِدَّةٍ إِلَى مَغَبَّةِ نِسْيَانِ بَعْضِ وَصَايَاهُ أَوْ ضَيَاعِ جَانِبٍ مِنْ سِيرَتِهِ الْمُبَارَكَةِ.



الثبات والمقاومة فى سيرة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)

إنّ الدين الإسلامى هو البرنامج الإلهى الأخير لتكامل البشرية، والذى رسم الله تعالى معالمه فى كتابه العزيز، القرآن الكريم، وجعل النبىّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) مفسّرين له ومبيّنين لأحكامه.

وفى مواجهة هذا الكنز العظيم، برز أعداءٌ ألدّاء؛ سواء فى عهد الدعوة إلى الإسلام وتأسيس الدولة الإسلامية، أو فى عهد تثبيت أركان الدين وصيانته.

وتجسّد سيرة أهل البيت (عليهم السلام) بوضوح تامّ معالم الصمود والاستقامة فى مواجهة الشدائد وحكام الجور والظلم. وقد استطاعت جهود الأئمة الدؤوبة والمستمرة حفظ الدين الحنيف وإرساء دعائم الوحدة الإسلامية.

إنّ الدفاع سنّة قائمة فى حياة البشر عامّة؛ فلكلّ إنسان أولوياته وقيمه الخاصة التى يراها جديرة بالصون؛ إلا أن المعتقدات تشغل دون شكّ مكانة فريدة لدى الجميع، ذلك لأن منهج الحياة إنما يُصاغ فى ظلال الدين والعقيدة.

وقد تطرأ الأزمات فى شتى أبعاد الحياة، غير أنّ سبيل الخلاص كامنٌ فى صلب الدين؛ إذ يمثّل الفهم الصحيح للدين والالتزام به المفتاح الأساسى لحلّ كل المعضلات. ومن هنا تبرز أهمية الدفاع عن أصل الدين وحمايته من أىّ تحريف أو تشويه.

يسلّط هذا المقال، بإيجاز، الضوءَ على مكانة الثبات والمقاومة فى سيرة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) دفاعاً عن الإسلام ورسالته.

مفهوم المقاومة

الاستقامة والثبات لغةً تعنى الرسوخ، والمضاء، والتصلب فى وجه التحديات ومقاومة الشدائد.

والمقاومة فى جوهرها: أن يختار الإنسان نهجاً يعتقده طريقاً للحق، وينطلق فيه بجدّ وعزم، دون أن تتمكن العوائق والعقبات من ثنيه عن المسير أو دفعه إلى التوقف والتردد (من خطابات سماحة قائد الثورة الإسلامية، ذكرى رحيل الإمام الخمينى قدس سره، ١٣٩٨ هـ ش).

أبعاد المقاومة

إنّ الصمود والمقاومة فى وجه التحديات يتحققان فى ميادين متعدّدة؛ فالأزمات والتحديات العقدية، والسياسية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، تصطف جميعاً فى مواجهة صرح الإسلام.

ولمواجهة هذه الأزمات، لا بدّ أن يكون الدفاع والمقاومة من جنس التحدى نفسه؛ لذا تأخذ أبعاد المقاومة اسم التحدى ذاته، فتتنوع بين: مقاومة عقدية، وسياسية، واقتصادية، وغيرها.

السيدة الزهراء (عليها السلام) أسوة المقاومة

إنّ أبرز أدوات المقاومة فى سيرة السيدة الزهراء (عليها السلام) تتجلّى فى ما يلى:

١. معرفة العدو (إدراك فكر الخصم والمواجهة الرشيدة)

عقب وفاة النبى الأكرم (صلّى الله عليه وآله)، نشأ انحراف خطير فى مسار الحكم الإسلامى على إثر أحداث السقيفة. فاتّخذت السيدة الزهراء (عليها السلام) من قضية «فدك» — وهى حقّها المسلّم — مدخلاً شرعياً لكشف الوجه الحقيقى لمن تقمّص الخلافة وبيان حقيقة موقفه للأمّة.

ونشير إلى هذه الواقعة بإيجاز: بعد رحيل النبى (صلى الله عليه وآله)، سلب الخليفة فدكاً من السيدة فاطمة (عليها السلام)، فواجهت السيدة أبا بكر مؤاخذةً: لمَ طردت وكيلَىّ وعمّالى من ملكى الخاص الذى وهبنى إياه والدى رسول الله؟

فقال أبو بكر: «ائتينى بشاهد»، فجاءت (عليها السلام) بشهودها، وكُتِب لها كتابٌ يثبت حقّها فى فدك، غير أنّ عمر قام بتمزيق الصحيفة.

وبعد أيام، راجعت السيدة الزهراء (عليها السلام) أبا بكر محتجّةً بإرثها من أبيها، فزعم أبو بكر أنّ الأنبياء لا يورّثون. ففنّدت السيدة دعواه بالاستدلال القاطع بآيات القرآن الكريم. وحين لم يجد الاحتجاج نفعاً معه، قررت (عليها السلام) إعلان المطالبة بحقّها جهاراً، فطرحت الأمر فى المسجد النبوى بصوت جهورى أمام حشد المهاجرين والأنصار.

خطبت الزهراء (عليها السلام) خطبتها الشهيرة، وذكّرت القوم بآيات الله وأحكامه، وأعادت إلى أذهانهم ميثاق يوم الغدير. وحاول أبو بكر خداع الحاضرين بنسبة حديث موضوع إلى النبى (صلى الله عليه وآله) مفاده: (إنّا معشر الأنبياء لا نورّث درهماً

ولا ديناراً...)، غير أنّ علم الزهراء وشجاعتها فضحا هذا الزعم الزائف؛ فقالت له: لقد افريتَ على أبى، مستشهدةً بآيات الذكر الحكيم: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ (النمل: ١۶)، وقول زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ (مريم: ۵-۶)، ثم بيّنت فرائض المواريث فى القرآن، مؤكدةً أنّ رسول الله لا يخالف كتاب الله قط. فاستبان للناس حقيقةُ الموقف ومآربه.

ثم دعا أبو بكر الناس فى المسجد متحدثاً بكلمات جارحة مدعياً أنّ السيدة تتكلم بدافع ردّ شهادتها، فوقفت السيدة أمّ سلمة (رضى الله عنها) معترضةً على كلامه قائلة: كيف يُقال هذا لبنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وابن عمّه؟!

وفى المرحلة الأخيرة من التنوير، قالت السيدة الزهراء (عليها السلام) لأبى بكر: «واللهِ لا كلّمتُك أبداً، واللهِ لأدعونّ الله عليك فى كل صلاة».

لقد سعت الزهراء (عليها السلام) إلى إفهام الأمة أنّ خليفة السقيفة لم يكن مستعداً للنزول عند أحكام القرآن، واعتبرت حرمانها من إرثها نكوصاً نحو سنن الجاهلية.

كانت السيدة الزهراء (عليها السلام) بحق رائدة مدرسة الاحتجاج والرفض، وأول من وقف بوجه الخلافة المدّعاة، مدركةً تماماً أنّ النضال طريق تحفّه المكاره والجراح والتضحية بالمهج. كما أيقنت أنّ ثمار المقاومة قد لا تُجنى سريعاً، بل إنّ بذر نهضة الحق وتأسيس مبادئ الثورة يثمران للأجيال القادمة ولو بعد حين (الأنصارى، ١٣٧٢، ص ١٩۶-٢١۶).

٢. الدفاع عن القرآن

نشأ النفاق منذ بدايات الدعوة الإسلامية؛ حيث أظهر بعضهم الإسلام تقيةً ومصلحة، لكنهم لما رأوا أحكامه تعارض أهواءهم، سعوا — مع الحفاظ على القشور والاسم — إلى تفريغ الدين من محتواه.

وبعد وفاة النبى (صلى الله عليه وآله)، رفع هؤلاء شعار «حسبُنا كتاب الله»، ثم منعوا تدوين الحديث الشريف فى محاولة لفصل القرآن عن العترة الطاهرة ووضع أحاديث ملفقة. وفى هذا المنعطف الحرج، كانت السيدة الزهراء (عليها السلام) مع الإمام على (عليه السلام) أول من كشف استراتيجية تيار النفاق، والذود عن أصالة القرآن الكريم.

وتكمن أهمية حركة السيدة الزهراء (عليها السلام) فى أنّها تصدت لمحاولات التأويل والتفسير المنحرف منذ خطواتها الأولى، وفضحت تلك السياسة المشؤومة، حيث خاطبت أبا بكر بقولها: «يا أبا بكر، أكفرتَ بالله وكذبتَ بكتابه؟!». وبفضل موقفها الصريح والواعى، تساقطت أقنعة النفاق وتبيّن للمسلمين أنّ رجالات السقيفة يتجرؤون على تزييف الأحكام الشرعية (إلهى زاده، ١٣٩٣، ص ٢٢-٢۴).

٣. الدفاع عن الولاية

عقب رحيل النبى (صلى الله عليه وآله)، أقصت القوى المناوئة أميرَ المؤمنين على بن أبى طالب (عليه السلام) عن مقامه الشرعى وسلبت الحق من صاحبه. فدخلت الزهراء (عليها السلام) الميدان بكل ما أوتيت من قوّة وثبات، وسلكت شتى السبل لمناهضة الحكم الغاصب.

فكانت تطرق، بصحبة أمير المؤمنين والحسنين (عليهم السلام)، أبواب المهاجرين والأنصار طوال أربعين ليلة، تُذكّرهم ببيعة الغدير وتنذرهم عواقب غصب الخلافة.

كما وقفت (عليها السلام) فى المسجد النبوى الشريف، وألقت خطبتها المدوية أمام جموع المهاجرين والأنصار، فأبكت القلوب وأيقظت الضمائر، وأرست واقعة مظلومية بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فى ذاكرة التاريخ (بابازاده، ١٣٧٤، ص ١٨٦). وكان تأكيدها الدائم على ولاية على (عليه السلام) سعياً حثيثاً لإعادة قطار الخلافة إلى مساره الإلهى الأصيل.

٤. إحياء اسم النبى (صلّى الله عليه وآله) وذكره

بعد وفاة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، تولّى الإمام على والسيدة الزهراء (عليهما السلام) تجهيز الجثمان الطاهر وتغسيله ودفنه، فى غيابٍ تامّ من رجالات السقيفة الذين انشغلوا باقتسام السلطة.

وكانت عبرات السيدة الزهراء الواعية، المقترنة بمدائح أبيها ورثائه والتأكيد المستمر على ألقاب: «رسول الله»، «نبى الله»، «أمين وحى الله»، كفيلةً بتثبيت قدسية مقام الرسالة وعصمتها فى نفوس الأمة، بحيث لم يجرؤ أحد من المنافقين على إنكارها علناً، وأضحى حكام الجور على مدار التاريخ يضطرون للتشبث باسم النبى شرعنةً لملوكيتهم.

ولم يكن بكاء فاطمة مجرد عاطفة ابنةٍ مفجوعة بأبيها، بل كان فى جوهره تعبيراً عن أسمى مراتب المعرفة بمقام النبوة ومسؤولية الهداية وصيانة حريم الولاية، وخوفاً من أن تنسى الأمة وصايا النبى وما أُمرت به من بعده (الأنصارى، ١٣٧٢، ص ٧٨).

كما كان لحضورها المنتظم عند قبر أبيها وقبور شهداء أُحُد أثرٌ بالغٌ فى استحضار قيم الجهاد والاستشهاد وبيان المفارقة بين معسكر الإيمان ومعسكر الجحود (الكريمى الجهرمى، ١٣٨٠، ص ١٣٠).

٥. الدعم الاقتصادى

حين أقطع النبى (صلى الله عليه وآله) فدكاً للزهراء (عليها السلام)، خصّصت السيدة وأميرُ المؤمنين (عليهما السلام) عائداتها لسدّ حاجات المعوزين والفقراء دون أن يستأثرا منها بشىء (إلهى زاده، ١٣٩٣، ص ٤٠).

وكان الهدف الأساسى للخصوم من غصب فدك هو تجريد الإمام على (عليه السلام) من القوة الاقتصادية والمالية التى تعينه على استقطاب القلوب ودعم الحركة الرسالية؛ إذ لا غنى لحركة جهادية عن سند مالى. بل عمدوا إلى استعداء العامة ضد أهل البيت عبر الترويج بأن فدك مال عام للمسلمين (الكهرمى، ١٣٩٤، ص ٤٧).

٦. تأسيس العلوم الإسلامية وتربية الكوادر

تمتعت السيدة الزهراء (عليها السلام) بمرجعية علمية وفقهية سامقة؛ حيث كان المسلمون فى عصرها يرجعون إليها فى حلّ معضلاتهم الفقهية والعقدية. وكان الرجال يستفيدون من علمها، سواء بالمباشرة أو عبر أزواجهم.

كما كانت (عليها السلام) من كبار رواة الحديث النبوى، وتخرّجت من مدرستها شخصيات جليلة؛ كفضة التى لم تنطق طوال عشرين عاماً بعد شهادة مولاتها إلا بآيات القرآن الكريم (إلهى زاده، ١٣٩٣، ص ٢٦). وقد كانت فضة وأم أيمن وأسماء من شهود الحق فى قضية فدك ودعم ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام). ويروى ورقة بن عبد الله الأزدى قائلاً: رأيت فضة فى سوق الحنطة بالمدينة بعد الطواف فقلت لها: حدّثينى عن أحوال مولاتك فاطمة فى فراش مرضها؛ فبكت بكاءً شديداً وقالت: لقد نكأتَ جراحاً مكنونة فى صدرى، ثم فصّلت له مجريات المحنة (الكهرمى، ١٣٩٤، ص ٨٤).

لقد صمدت السيدة الزهراء (عليها السلام) كأنموذج وأسوة للمقاومة فى وجه أعداء الدين بكل وجودها، ولولا دور أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فى تبيين الإسلام المحمدى الأصيل، لما كُتب للإسلام البقاء ولعاشت البشرية فى حيرة وتيه عظيمين.

ورغم أنّ السيدة الزهراء قد أدّت واجبها الرسالى كسيّدة مسلمة كاملة، إلا أنّ الدفاع عن الدين ليس منحصراً بأهل البيت والعلماء، بل هو تكليف يقع على عاتق كل فرد مسلم بحسب استطاعته وموقعه.

المقاومة واجب عام

«...عزّزوا هذه الحركة الإسلامية بكل ما أوتيتم من قوة؛ فإنّ سبيل نجاة هذه المنطقة يكمن فى تعزيز الصحوة الإسلامية، وتقوية تيار المقاومة الإسلامية. وهذا واجب متوجّه إلى عموم أفراد الشعوب المسلمة، ولا سيّما علماء الإسلام، ثم المفكرين والكتّاب والشعراء والعلماء والفنانين والنخب السياسية؛ فهؤلاء جميعاً مخاطبون بنداء دعوة نبى الإسلام والهداية الربانية» (من خطابات سماحة قائد الثورة الإسلامية، لقاء مسؤولى النظام وضيوف مؤتمر الوحدة الإسلامية، ١٣٩٧ هـ ش).

معوقات المقاومة

١. إظهار الحياد والصمت

يندرج بعض المسلمين تحت مصداق الآية الكريمة: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ (النساء: ١۴٣)؛ حيث يعتزلون المشهد ويلتزمون الصمت بزعم تجنب الفتنة والنأى بالنفس، بينما الواجب الدينى يفرض مناصرة الحق والوقوف بوجه الباطل.

وقد جابهت السيدة الزهراء (عليها السلام) هذا المنطق الانهزامى فى خطبتها قائلة: «زَعَمْتُمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، فَهَيْهَاتَ مِنْكُمْ، وَكَيْفَ بِكُمْ...». فبينت أنّ التقاعس عن نصرة الحق خوفاً من الفتنة هو عين السقوط فى أتونها.

٢. طلب الراحة والعافية (الانهزامية)

تقول السيدة الزهراء (عليها السلام) فى خطبة فدک معاتبةً: «أَلَا وَقَدْ أَرَى أَنْ قَدْ أَخْلَدْتُمْ إِلَى الْخَفْضِ... وَخَلَوْتُمْ بِالدَّعَةِ»؛ أى أنّكم فترت هممكم عن القيام والنضال وآثرتم الدعة والراحة وطيب العيش!

ويتضح من هذا الكلام أنّ الأرضية الخصبة لغصب الخلافة كان مبعثها لامبالاة القوم وانغماسهم فى طلب الراحة؛ فلو لم تتراخَ عزائم الناس فى نصرة مبادئ الإسلام، لما استطاعت شرذمة من طلاّب السلطة تحريف مسار الإمامة عبر استغلال الدين وشعارات القرآن والسنة (الكهرمى، ١٣٩۴، ص ۵٣-۵۴).

خاتمة

إنّ ثبات وصمود الرجال والنساء المسلمين عبر التاريخ هو الذى أبقى شعلة الإسلام وضّاءة، وبمثل هذا الصمود سيأتى اليوم الذى تُطبّق فيه أحكام الله كاملةً على وجه الأرض. وإنّ من بركات ثقافة المقاومة انتصار الثورة الإسلامية، والتوفيق فى الدفاع المقدس، وانبثاق فجر الصحوة الإسلامية.

تكتسب المقاومة معناها الحقيقى إبّان الشدائد والمحن؛ فالأعداء ما برحوا يضيّقون الخناق على المسلمين لاستئصال شأفة الدين، غير أنّ صلابة المؤمنين حفظت للإسلام حضوره وبقاءه.

وإذا ما شهدنا اليوم تراخياً فى تطبيق بعض الأحكام، فما هو إلا نتاج غفلة هذا الجيل؛ فإن لم نستفق سريعاً، أضعنا ما شيّده الصالحون بجهادهم. فالأولى بنا أن نتحلّى بالمقاومة والصبر فى سبيل اللذائذ الأبدية الباقية، بدلاً من الركون إلى الملذات الزائلة الدنيئة.



الثبات والاستقامة فى سيرة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)

تُعَدّ السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) فى ميزان الولاية والذود عن مقام أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه السلام) ركناً أساسياً لا غنى عنه، كما وصفها بذلك النبى الأكرم (صلّى الله عليه وآله).

روى الإمام جعفر الصادق عن أبيه الإمام محمد الباقر عن جابر بن عبد الله الأنصارى (رضى الله عنه) قال: «سمعتُ رسولَ الله (صلّى الله عليه وآله) يقول لعلى بن أبى طالب قبل وفاته بثلاث: سلامٌ عليكَ يا أبا الرَّيْحانَتَيْنِ، أُوصِيكَ بِرَيْحانَتَيَّ مِنَ الدُّنْيا، فَعَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدُّ رُكْناكَ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ. فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ (صلّى الله عليه وآله) قَالَ عَلِيٌّ: هَذَا أَحَدُ رُكْنَيَّ الَّذِى قَالَ لِى رَسُولُ اللهِ (صلّى الله عليه وآله)، فَلَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ (عليها السلام) قَالَ عَلِيٌّ: هَذَا الرُّكْنُ الثَّانِى الَّذِى قَالَ لِى رَسُولُ اللهِ (صلّى الله عليه وآله)» (المجلسى، بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٣).

و«الركن» فى المعاجم واللغة: هو الجانب الأقوى للشىء، وما يُستند إليه ويُعتمد عليه لطلب القوة والمنعة، والأساس والعماد، وكل ما يبعث على العزّة والغلبة والمجد (يُنظر: لغت نامه دهخدا، ناظم الأطباء، منتهى الإرب وغيرها).

ومن المعلوم أنّ الأركان هى التى تشكّل البنية التحتية والأساس الثابت؛ ففى تعريف الركن فى العبادات يُقال: هو ما يبطل العمل بتركه عمداً أو سهواً.

تُبرز هذه التحديدات اللغوية والاصطلاحية المكانة الاستراتيجية الرفيعة للزهراء (عليها السلام) بين الأئمة المعصومين. ولعلّ أبلغ ما يوضح هذه المنزلة الملكوتية ما رُوى عن الإمام الحسن العسكرى (عليه السلام) حيث قال: «نَحْنُ حُجَجُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَجَدَّتُنَا فَاطِمَةُ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْنَا» (أطيب البيان، ج ١٣، ص ٢٢٥).

إنّ السيدة الزهراء (عليها السلام) هى المصداق الأجلى للإنسان الكامل؛ ولما كان الإنسان الكامل مظهراً جامعاً للأسماء والصفات الإلهية، فإن معرفته الحقيقية وتقدير كنهه لا ينهض بهما إلا الله تعالى وسائر المعصومين.

وفى المنظور القرآنى، يقوم الإنسان الكامل — بصفته سراجاً منيراً — بوظيفة هداية البشرية نحو «الله». وقد نهضت الزهراء (عليها السلام) بصيانة الدين والذود عن الوصى الشرعى لرسول الله (صلى الله عليه وآله) متجردةً عن أى هوىً ذاتى، معتمدةً منهجين بارزين: إقامة الحجج والبراهين، والوصية السياسية المحكمة؛ فكانت فى جميع أقوالها وأفعالها وتقاريرها ناظرةً إلى حماية بيضة الدين وناصحةً للأمة (يُنظر: نعمتى بيرعلى، ١٣٨٧ هـ‌ش، العدد ٣٩).

وقد جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) فى بيان باطن سورة القدر قوله: «اللَّيْلَةُ فَاطِمَةُ وَالْقَدْرُ اللهُ، فَمَنْ عَرَفَ فَاطِمَةَ حَقَّ مَعْرِفَتِهَا فَقَدْ أَدْرَكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ» (فرات الكوفى، تفسير فرات الكوفى، ج ١، ص ٣٦٢). وفى تعليل تسميتها الشريفة بـ«فاطمة»، أضاف (عليه السلام): «وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ فَاطِمَةَ لِأَنَّ الْخَلْقَ فُطِمُوا عَنْ مَعْرِفَتِهَا» (المصدر نفسه).

إنّ سيرة السيدة الزهراء (عليها السلام) فى الميادين السياسية والدينية — كأسلافها الأطهار — قامت على عقيدة راسخة لا تلين، ولم تدّخر فى هذا السبيل وسعاً ولا تضحية.

فكانت السبّاقة والرائدة فى نصرة أسمى وأهمّ أصلٍ إسلامى، ألا وهو «الولاية» والخلافة الشرعية للنبى (صلى الله عليه وآله)، التى عبّر عنها القرآن الكريم بتمام النعمة وكمال الدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: ٣). وكانت بحق عماد أمير المؤمنين وملاذه الحصين، لدرجة أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) استشعر بعد شهادتها الوحدة والغربة التامة، ومال إلى انتهاج المصالحة والمداراة (طبيبى، مجلة منهاج، ١٣٩٠ هـ‌ش).

إنّ الغاية القصوى من نضال المعصومين (عليهم السلام) هى إقامة الحكم الإسلامى الرشيد القائم على ولاية الإمام الحق. ومن هنا، تمثّل أبرز نشاط للزهراء (عليها السلام) فى ظرفها التاريخى والاجتماعى الحرج فى إثبات إمامة أمير المؤمنين كأصل محورى للإسلام (نعمتى بيرعلى، ١٣٨٧ هـ‌ش).

وقد تنوعت وسائل دفاعها عن مقام القيادة الحقة بين: رواية الحديث الشريف، والتقريع الصريح لجمهور المتقاعسين والحكام، وزيارة منازل المهاجرين والأنصار، واعتصام البكاء الهادف، والصمت الاحتجاجى، والوصية بدفنها سراً، والتضحية بجنينها الشهيد المحسن (عليه السلام). وبهذا غدت مواقف الزهراء خير أسوة يقتدى بها كل مسلم اليوم فى الالتزام بنهج الولاية وأداء الواجب الشرعى (رستمى وشادكام، مجلة منهاج، ١٣٩٠ هـ‌ش).

تتسع حياة الزهراء (عليها السلام) لأبعاد معرفية وسلوكية شتى؛ فقد جمعت بين كمال الصيانة والعفاف وقمة البلاغة والتأثير الاجتماعى والسياسى. ويبرز ذلك جلياً فى خطبتها الفدكية التاريخية؛ حيث شكّلت أرض «فدك» شرياناً اقتصادياً حيوياً لحركة أمير المؤمنين، وكان غصبها عملاً غير مشروع يناقض نصوص التنزيل، ومؤشراً عملياً قاطعاً على عدم أهلية الغاصب للخلافة (طبيبى، ١٣٩٠ هـ‌ش).

إنّ ما يسترعى الانتباه فى شخصيتها هو ذلك التناغم الفريد بين العواطف الجياشة والحكمة العقلية الصائبة؛ وهو الجمع بين الكمالات الذى أهّلها بجدارة للقب «سيّدة نساء العالمين». ففى ظلال عقلها النيّر رأت نفسها مسؤولة عن تبيين جادّة الصواب،

وفى ظلال قلبها المفعم بالإيمان والرحمة انبرت لبثّ الحماسة والوعى فى قلوب الناس ليسيروا بخطى حثيثة نحو الغاية السامية (قائمى، ١٣٧٣ هـش، ص ١٥٠).

فكانت «أمّ أبيها» فى طفولتها بلسماً لجراح النبى الأكرم فى مكة، كما كانت فى أحلك ظروف الحروب والمحن ملاذاً يضمد جراح بعلها الجسدية والنفسية (أمينى، ١٣٤٩ هـش، ص ٧٩)، حتى قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «فَوَاللهِ... مَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا إِلَّا وَانْجَلَتْ عَنِّى الْهُمُومُ وَالأَحْزَانُ» (بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٣٤).

وفى مضمار التربية وبناء الأسرة، شكّلت الزهراء (عليها السلام) النموذج الإلهى الأرفع؛ فهى التى خرّجت للإنسانية سيّدَى شباب أهل الجنة: الحسن والحسين (عليهما السلام).

وقد اعتنت بأدق تفاصيل التنشئة؛ فغرست فى نفوس أبنائها حبّ العبادة والشوق إلى التذلل بين يدى البارى جلّ وعلا منذ الصغر، وعلّمتهم عشق الركوع والسجود بملامح وجهها وخشوعها قبل لسانها. واعتمدت مبدأ العدالة والمساواة فى إفاضة المحبة والعطف، مما يعزز الاستقرار النفسى فى وجدان الطفل.

وكانت تراقب تصرفاتهم بحنوّ وتدبير، ومن شواهد منهجها التربوى الرائد اهتمامها بالحركة واللعب وممازحة الأطفال لغرس مشاعر النشاط والبهجة فى أرواحهم (يُنظر: عباس بذركار).

يقدم الغرب المعاصر اليوم نموذجاً للمرأة متفلّتاً من قيود الأسرة وقدسيتها؛ نموذجاً يسعى لملء خزائن الشركات الرأسمالية بينما يُترك الأبناء فى دور الحضانة مجرّدين من الرعاية الأسرية الكافية. والنتيجة الحتمية لهذا المسار هى تصدع الأسرة وتفكك المجتمع.

أمّا المرأة المسلمة فقد اتخذت من فاطمة الزهراء (عليها السلام) مناراً وقدوة، وكان لانتصار الثورة الإسلامية الفضل فى إعادة بعث هذه القيم الفاطمية وتجليها فى الواقع المعاصر؛ حيث أثبتت التجربة التاريخية فى مواجهة الاستبداد وخوض معارك الدفاع المقدس أنّ الانتصارات السياسية والاجتماعية والثقافية كانت ثمرة الحضور الفاعل والمباشر للمرأة المؤمنة فى ميادين العلم والعمل والتضحية (المصدر نفسه).



دور السيدة الزهراء (عليها السلام) فى الدفاع عن الإسلام والولاية

كان للسيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها)، بنت نبى الإسلام، دور بارز فى دعم الولاية والاتباع لإمامة أهل البيت؛ إذ إنها بصفتها زوجة للإمام على (عليه السلام) وأماً للحسن والحسين (عليهما السلام)، لم تقتصر على مؤازرة إمامة الإمام على (ع) وولايته خلال حياة النبى الأكرم فحسب، بل واصلت هذا الدعم المؤثر بعد استشهاده ورحيله أيضاً.

وفى واقعة غدير خم التى أعلن فيها نبى الإسلام (ص) إمامة الإمام على (ع) وخلافته من بعده، أعلنت السيدة الزهراء (س) من قبل الله ورسوله بصفتها أول المؤمنين وولية الله، ومن خلال حضورها فى هذه المراسم وإقرارها العلنى بإمامة الإمام على (ع)، أدت دوراً كبيراً فى تثبيت دعائم ولايته.

فضلاً عن ذلك، سعت السيدة الزهراء طوال حياتها الشريفة للحفاظ على ولاية الإمام على وإمامته؛ فكانت بنشر تعاليم الإمام على (ع) وترويجها، وبنقد السياسات الخاطئة ومناهضة التعدى على حقوق الإمامة، من أهم الأركان والعوامل الأساسية فى صيانة هذه الولاية وتلك الإمامة.

وقد عُرفت السيدة الزهراء فى كتب التاريخ والروايات الإسلامية بوصفها نموذجاً بارزاً للالتزام بالولاية والتمسك بالإمامة، كما تُعد على مر التاريخ قدوة إلهية للمرأة ذات المكانة الرفيعة والاقتدار فى نصرة الحق والولاية.

لقد قامت السيدة فاطمة الزهراء (س) بدور محورى بالغ الأهمية فى تثبيت ولاية الإمام على (ع)؛ فبجهودها المتواصلة فى توثيق الصلة بين الإمام والمجتمع، كانت بمثابة السند الرئيسى لإمامته وولايته.

الإعلان العلنى والإقرار بالإمامة

يشير أستاذ فى جامعة «فرهنكيان» بمدينة أراك، فى حديثه لمراسل وكالة فارس، إلى جوانب من دور السيدة الزهراء (س) فى تثبيت ولاية الإمام على (ع)، مبيناً أن الإعلان العلنى والإقرار بالإمامة يأتيان فى طليعة هذه الأدوار؛ حيث برزت السيدة الزهراء فى غدير خم كأول مؤمنة وولية لله، وأقرت بإمامة الإمام على، مما أوضح للأمة الإسلامية بجلاء أن إمامته إنما تستند إلى وصية رسول الله وأن ولايته مجعولة بأمر إلهى.

ويضيف حسين معافى: كان الدعم فى الخطب والمحافل العامة أحد أبرز أساليبها؛ إذ بادرت السيدة الزهراء فى الاجتماعات العامة والخطب إلى تبيان معارف الإمام على (ع) ونشر فضائله وإبراز خصاله الأخلاقية السامية، مما أسهم بشكل مباشر فى تثبيت ولايته.

نقد السياسات الخاطئة ومقاومتها

وحول دور السيدة الزهراء فى مجابهة السياسات الخاطئة، يوضح معافى قائلاً: واجهت السيدة الزهراء (س) السياسات المنحرفة والاعتداء الصريح على حقوق الإمامة والولاية، فمن خلال استنكار المظالم ونقد الانحرافات والنهوض فى وجه الجور، حثت المجتمع وحفزت الأمة على العمل الجاد للحفاظ على ولاية الإمام على (ع).

تأكيد الإمامة فى إطار المشروعية الدينية

ويُعد إثبات الإمامة وترسيخها ضمن المشروعية الدينية من أهم أدوار السيدة الزهراء (س)، حيث يشير الأستاذ الجامعى إلى ذلك قائلاً: أكدت فاطمة الزهراء بحضورها الفاعل ومشاركتها فى المحافل والمناسبات الدينية على مكانة الإمام على (ع) قائداً شرعياً وإماماً معصوماً، وبوصفها أسمى نموذج إلهى فى الطاعة والانقياد للإمامة، بينت بجلاء أهمية ولاية الإمام على (ع) وتكامل العصمة والطهارة فيه.

وهذه النماذج لا تمثل سوى جزء يسير من فيض أدوار السيدة الزهراء (س) فى تثبيت ولاية الإمام على (ع)؛ إذ استثمرت سيدة نساء العالمين كامل طاقاتها وإمكاناتها لتكون القدوة الإلهية العليا فى اتباع الإمامة والانقياد لها، مقدمة للأمة الإسلامية المثل الأسمى والأنموذج الأرقى.

كما كان للسيدة فاطمة الزهراء، بصفتها ابنة رسول الإسلام وزوجة الإمام على وأم السبطين الحسن والحسين (عليهم السلام)، أثر كبير فى تقدم الإسلام وانتشاره؛ فشاركت بفاعلية فى بث التعاليم الإسلامية، وكانت مؤثرة فى شتى مناحى الحياة والشؤون الاجتماعية والسياسية.

النصرة والمشورة لرسول الإسلام

وفى معرض حديثه عن دور السيدة الزهراء (س) فى نهضة الإسلام وتطوره، يصرح معافى: تمثلت إحدى مسؤولياتها فى تقديم النصرة والمشورة؛ فطوال حياة النبى الأكرم (ص)، كانت كريمته الزهراء سنداً له ومستشاراً، تعينه فى الشؤون السياسية والاجتماعية وتقدم إليه آراء وتوجيهات سديدة.

وعن دورها التربوى والتعليمى، يذكر: أدت الزهراء (س) دوراً استثنائياً فى تربية أئمة أهل البيت وتعليمهم، ولا سيما الإمامين الحسن والحسين (ع)؛ إذ أولت منذ طفولتهم وحتى مرحلة الرشد عناية فائقة بتنشئتهم على الأسس الأخلاقية والعلمية والدينية الرصينة، وربتهم وفق المنهج الإسلامى الأصيل.

إشاعة الأخلاق والقيم الإسلامية

ويؤكد أستاذ جامعة فرهنكيان على دورها فى الدفاع عن حقوق العترة الطاهرة قائلاً: بعد رحيل نبى الإسلام، هبت السيدة الزهراء (سلام الله عليها) للدفاع عن حقوق الإمام على (ع) وأهل البيت (عليهم السلام) فى مواجهة السلطات غير المشروعة المناهضة للولاية، وأعلنت فى خطبتها الفدكية وفى الاجتماعات العامة استنكارها الشديد للمظالم وتجاهل حقوق آل بيت النبى.

ويشير معافى كذلك إلى نشر القيم الأخلاقية والإسلامية موضحاً: ركزت السيدة الزهراء فى خطبها وكلماتها على إشاعة الأخلاق الإسلامية السامية، كالعدل، والقصد والاعتدال، ورعاية المحتاجين والفقراء، وبر الوالدين، وصيانة الأسرة، وسائر المبادئ والفرائض الدينية؛ فغدا نموذج حياتها وسلوكها الأخلاقى الرفيع ملهماً للبشرية جمعاء.

ويختم بالقول: إن السيدة الزهراء (سلام الله عليها) بصفتها من كبار علماء الإسلام وحملة المعرفة الحقة، لم تكتفِ بتربية أبنائها وتنشئة أسرتها فحسب، بل نقلت علمها ومعارفها إلى سائر الناس، وخلّفت آثاراً أدبية وأدعية شهيرة ومناجاة عظيمة لا تزال حتى يومنا هذا مناراً وموردا فى آفاق الأدب والعرفان الإسلامى.

وبصورة عامة، قدمت السيدة الزهراء (س) من خلال نشر التعاليم الدينية، والتربية الأخلاقية، والجهاد فى سبيل حقوق ولاية الإمام على (ع) وأهل البيت (عليهم السلام)، وتقديم النموذج الأكمل للحياة الإسلامية، خدمة جليلة وعظيمة فى سبيل تقدم الإسلام وازدهاره.